

زيومخ في مارس ٢٠٢٣ م

# الجوع والهجرة

## ثابت عيد

قَرَأْتُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ عَن مُشْكِلَةِ زِيَادَةِ عَدَدِ سُكَّانِ الْعَالَمِ، عِنْدَمَا كُنْتُ أترجمُ كِتَابَ : «قَرُنَا هَذَا» لِلْمُسْتَشَارِ الْأَلْمَانِيِّ الْأَسْبِقِ هَيْلمُوتِ شِمِيدَتِ وَصَدِيقِهِ فِرِيْتَسِ شِتْرِنَ، وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي بَاعُوا مِنْ أَصْلِهِ الْأَلْمَانِيُّ نَحْوَ مِليونِ نُسخَةٍ. ذَكَرَ هَيْلمُوتُ شِمِيدَتِ أَنَّ عَدَدَ سُكَّانِ الْمَعْمُورَةِ قَدْ بَلَغَ ثَمَانِيَةَ مِليَارَاتِ نَسْمَةٍ، مُتَضَاعِفاً أَرْبَعَ مَرَّاتٍ خِلالَ الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ. يَفِينَا هَذَا خَبْرٌ مُدْعِرٌ فِعْلاً، وَمُخِيفٌ حَقًّا، وَيَقُودُنَا بِدَوْرِهِ إِلَى سُؤَالِ مَنْطِقِيٍّ هُوَ: مَا هُوَ مُسْتَقْبَلُ الْبَشَرِيَّةِ؟ وَكَيْفَ سَيَكُونُ شَكْلُ الْحَيَاةِ عَلَى كَوْكَبِنَا هَذَا، إِذَا اسْتَمَرَ تَزَايُدُ عَدَدِ سُكَّانِ الْأَرْضِ بِهَذِهِ الْوَتِيرَةِ السَّرِيعَةِ؟ صَحِيحٌ أَنَّنَا لَا نَتَكَاثَرُ بِسُرْعَةٍ تَكَاثَّرَ بَعْضُ الْكَائِنَاتِ الْأُخْرَى كَالْقِطَطِ أَوْ الْأَرَانِبِ مَثَلًا، وَصَحِيحٌ أَنَّ دَوْلًا كَبِيرَةً مِثْلَ الصِّينِ قَدْ تَمَكَّنَتْ مِنْ ضَبْطِ عَدَدِ سُكَّانِهَا حَدِيثًا، وَمَعَ ذَلِكَ يُعَدُّ هَذَا تَطَوُّرًا خَطِيرًا جَدًّا، وَبِالطَّبَعِ سَيَكُونُ حَاسِمًا بِالنَّسْبَةِ لِتَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ، وَمُسْتَقْبَلُ الْحَيَاةِ عَلَى الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ. ثَمَانِيَةَ مِليَارَاتِ نَسْمَةٍ صَارُوا يَعِيشُونَ عَلَى كَوْكَبِ الْأَرْضِ، يَتَنَفَّسُونَ، وَيَزْفِرُونَ، وَيَصِيحُونَ، وَيَحَارِبُونَ، وَيَتَنَازَعُونَ، وَيَتَقَاتَلُونَ، وَيَدَخِّنُونَ، وَيُلَوِّثُونَ، وَيَتَفَرَّغُونَ، وَيَكَابِرُونَ، وَيَتَمَخَّطُونَ، وَيَتَبَخَّرُونَ، وَيَتَبَاغَضُونَ، وَيَتَحَالَفُونَ، وَيَتَمَاكِرُونَ، وَيَدْمُرُونَ، وَيَتَفَرِّلُونَ، وَيَتَوَحَّشُونَ، وَيَتَبَلَّجُونَ، وَيَسْتَهْبِلُونَ، وَيُضَلِّلُونَ، وَيَنْهَبُونَ، وَيَسْرِقُونَ، وَيَنْصُبُونَ. كُلُّ هَذَا وَالْأَرْضُ صَامِتَةٌ، صَامِدَةٌ، صَابِرَةٌ، مُثَابِرَةٌ، مُتَحَمِّلَةٌ، مُتَأَلِّمَةٌ، مُتَعَجِّبَةٌ، مُتَقَرِّزَةٌ. وَبَعْدُ.

السُّؤَالُ الْمِحْوَرِيُّ هُنَا هُوَ: لِمَاذَا يَهَاجِرُ النَّاسُ؟ يُمْكِنُ تَلْخِيصُ الْإِجَابَةِ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ هُوَ الْجُوعُ. الْجُوعُ هُنَا قَدْ يَعْنِي جُوعَ الْبَطْنِ لِلْخُبْزِ، أَوْ جُوعَ النَّفْسِ لِلْحُرِّيَّةِ، أَوْ جُوعَ الرُّوحِ لِلْعَمَلِ وَالْكَسْبِ وَالْإِسْتِقْلَالِ، فَضْلًا عَنِ التَّعَطُّشِ لِلْمَعْرِفَةِ، وَالسَّعْيِ لِطَلَبِ الْعِلْمِ. يَقُولُ الْمَثَلُ الْقَدِيمُ: «أَثْنَانِ لَا يَشْبَعَانِ، طَالِبُ الْعِلْمِ وَطَالِبُ الْمَالِ». وَبَعْدُ.

سُويسِرَا الَّتِي صَارَتِ الْيَوْمَ أَعْنَى دَوْلَةِ أُورُوبِيَّةِ مَرَّتَ بِفَتْرَاتٍ تَارِيخِيَّةِ عَصِيبَةٍ، عَانَتْ فِيهَا مِنْ مَجَاعَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ فِي الْقُرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ، ثُمَّ الْقُرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، وَالسَّابِعِ عَشَرَ، وَالثَّامِنِ عَشَرَ، وَضُورًا إِلَى الْقُرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ. كَانَ عِنْدِي صَدِيقٌ مِنَ الْأَرْجَنْتِينِ أَخْبَرَنِي أَنَّ أَجْدَادَهُ السُّويسِرِيِّينَ هَاجَرُوا مِنْ سُويسِرَا إِلَى الْأَرْجَنْتِينِ بِسَبَبِ الْمَجَاعَاتِ الَّتِي اجْتَاغَتْ سُويسِرَا فِي الْقُرُونِ الْمَاضِيَّةِ. فَلَمَّا سَاءَتْ أَحْوَالُ الْأَرْجَنْتِينِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ حَدِيثًا، وَصَارَتْ سُويسِرَا أَعْنَى دَوْلَةِ أُورُوبِيَّةِ، بَدَأَ الْأَحْفَادُ يُفَكِّرُونَ فِي عَمَلِ هِجْرَةٍ عَكْسِيَّةٍ إِلَى أَرْضِ الْأَجْدَادِ، مِنَ الْأَرْجَنْتِينِ إِلَى سُويسِرَا. وَبَعْدُ.

نَلَاحِظُ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى أَنَّ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الْمِصْرِيِّينَ الَّذِينَ قَرُّوا مِنْ جَجِيمِ حُكْمِ الْعَسْكَرِ فِي مِصْرَ، لَمْ يَهَاجِرُوا لِأَسْبَابِ اِقْتِصَادِيَّةِ بَحْتَةٍ، بَلْ لِأَسْبَابِ سِيَاسِيَّةٍ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ، بَحْثًا عَنِ مُجْتَمَعٍ يَحْتَرِمُ حُقُوقَهُمْ، وَيَقْدِّرُ إِنْجَازَاتِهِمْ، وَيُوفِّرُ لَهُمْ فُرْصًا مُنَاسِبَةً لِلْإِنْدَاعِ. وَبَعْدُ.

عِنْدَمَا تَتَمَتَّعُ دَوْلَةٌ مَا بِاسْتِقْرَارٍ سِيَاسِيٍّ، وَأَمَانٍ اجْتِمَاعِيٍّ، وَمُسْتَوَى مَعِيشِيٍّ مُرْتَفِعٍ، غَالِبًا مَا يُحْجِمُ النَّاسُ عَنِ التَّفَكِيرِ فِي الرَّحِيلِ، وَيُفَضِّلُونَ الْبَقَاءَ فِي أَوْطَانِهِمْ.

أَبْلَغَنِي سَفِيرُ مِصْرَ الْأَسْبَقِ فِي سُويسْرَا، مَمْدُوحُ عَبْدِ الرَّازِقِ، ابْنُ شَيْخِ الْأَزْهَرِ الْأَسْبَقِ مُصْطَفَى عَبْدِ الرَّازِقِ، أَنَّ الدُّبْلُومَاسِيَّينَ الْمِصْرِيِّينَ قَبْلَ انْقِلَابِ 1952م كَانُوا يُفَضَّلُونَ الْبَقَاءَ فِي مِصْرَ عَلَى الْعَمَلِ فِي سَفَارَاتِ مِصْرَ فِي الْخَارِجِ ؛ لِأَنَّ الْحَيَاةَ فِي مِصْرَ قَبْلَ سَنَةِ 1952م كَانَتْ جَمِيلَةً وَمُسْتَقَرَّةً وَمُرِيحَةً.

أَمَّا الْيَوْمَ، بَعْدَ ثَانِي انْقِلَابِ عَسْكَرِيٍّ فِي تَارِيخِ مِصْرَ الْحَدِيثِ سَنَةَ 2013م، فَقَدْ صَارَتِ الْغَالِبِيَّةُ الْعُظْمَى مِنَ الْمِصْرِيِّينَ لَا تَحْلُمُ إِلَّا بِشَيْءٍ وَاحِدٍ هُوَ الْفِرَارُ مِنْ جَحِيمِ حُكْمِ الْعَسْكَرِ، وَالْهَجْرَةُ إِلَى الْخَارِجِ. وَبَعْدُ.

الْهَجْرَةُ قَدْ يَكُونُ لَهَا دَافِعٌ آخَرُ هُوَ التَّشَوُّقُ لِلْعَيْشِ فِي مَسَاحَاتِ فَسِيحَةٍ، بِكَثَافَةِ سَكَانِيَّةٍ مُنْخَفِضَةٍ. وَهَذَا تَعْنِي جُودَةَ الْحَيَاةِ الْفَضَاءِ الْوَاسِعِ، وَالطَّبِيعَةَ الْخَلَابَةَ. وَهَذَا مَا نَلَاخِظُهُ فِي حَالَةِ بَعْضِ الْأَلْمَانِ أَوْ السُّوَيْسْرِيِّينَ الَّذِينَ يَهَاجِرُونَ إِلَى أَمْرِيكَ الْجَنُوبِيَّةِ، وَيَسْتَرُونَ مَزَارِعَ كَبِيرَةً، يَقْضُونَ فِيهَا مَا تَبَقِيَ لَهُمْ مِنَ الْعُمْرِ، بَعِيدًا عَنِ ضَوْضَاءِ الْمُدُنِ، وَتَلَوُّثِ هَوَائِهَا. وَبَعْدُ.

فَقَدْ تَكُونُ الْهَجْرَةُ بَحْثًا عَنِ طَقْسٍ مُعْتَدِلٍ، فَرَارًا مِنَ الْبَرْدِ الْقَارِسِ، مِثْلَمَا هُوَ الْحَالُ مَعَ أَحَدِ جِيرَانِي فِي مَارِيَا، بِجَنُوبِ إِسْبَانِيَا، الَّذِي قَرَّ مِنْ بَرْدِ التَّرْوِيحِ الشَّدِيدِ، وَشَيْدَ فَيْلًا فِي جَنَّةِ جُودَالْمِينَا سَمَّاهَا «الْفَيْلَا التَّرْوِيحِيَّة».

لَكِنَّ الْفَقْرَ، وَجُوعَ الْبَطْنِ، يَبْقِيَانِ الدَّافِعَ الْأَكْبَرَ لِلْهَجْرَةِ عَبْرَ التَّارِيخِ. فَلَوْلَا الْجُوعُ لَمَا جَارَفَ آلَافٌ مِنَ الْأَقَارِقَةِ بِحَيَاتِهِمْ لِعُبُورِ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ، حُلْمًا بِوَضْعِ قَدَمٍ فِي أُرُوبَا. وَالْمَشَاهِدُ نَفْسَهَا تَقْرِيبًا تَتَكَرَّرُ عَلَى حُدُودِ الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْجَنُوبِيَّةِ، حَيْثُ لَا يَكْفُ النَّاسُ فِي الْجَنُوبِ الْفَقِيرِ عَنِ مَحَاوَلَةِ دُخُولِ الشَّمَالِ الْعَنِيِّ، وَحَيْثُ يَحَاوِلُ نَحْوُ رُبْعِ مِليُونِ شَخْصٍ مِنْ فُقَرَاءِ الْجَنُوبِ شَهْرِيًّا عُبُورَ حُدُودِ الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ، وَبَعْدُ.

الْوَضْعُ فِي الْقَارَّةِ الْأُورُوبِيَّةِ يَزْدَادُ سُوءًا كُلَّ يَوْمٍ. وَالسَّبَبُ الْأَسَاسِيُّ هُوَ الْجُوعُ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ. فَالِدَوْلُ الْأُورُوبِيَّةُ لَا تَتَمَتَّعُ كُلُّهَا بِنَعِيمِ الرَّفَاهِيَّةِ وَارْتِفَاعِ مُسْتَوَى الْمَعِيشَةِ، بَلْ هُنَاكَ فِجْوَةٌ عَمِيقَةٌ تَفْصِلُ بَيْنَ أَغْنِيَائِهَا وَفُقَرَائِهَا. وَزَادَ الطَّيْنُ بَلَّةً وَصُولَ مَلَائِينَ مِنَ اللَّاجِنِينَ الْجُدُدِ مِنْ أَفْغَانِسْتَانَ وَالدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى أُرُوبَا بَحْثًا عَنِ حَيَاةٍ أَفْضَلِ.

الْقَارَّةُ الْأُورُوبِيَّةُ لَيْسَتْ كَبِيرَةً مِنْ حَيْثُ الْمِسَاحَةِ، بَلْ هِيَ صَغِيرَةٌ نِسْبِيًّا مَقَارَنَةً بِمِسَاحَةِ رُوسِيَا مِثْلًا (17 مِليُونِ كَم2). تَبْلُغُ مِسَاحَةُ أُرُوبَا 10.523000 كَم مَرْتَبِعٍ، يَعِيشُ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ 751 مِليُونِ نَسَمَةٍ. لَكِنَّ الصَّادِمَ هُنَا حَقًّا هُوَ التَّفَاوُتُ الْكَبِيرُ بَيْنَ مُسْتَوَاتِ الْمَعِيشَةِ فِي دَوْلِ هَذِهِ الْقَارَّةِ الْعَجُوزِ. مَنْ يُصَدِّقُ مِثْلًا أَنَّ مُسْتَوَى الْمَعِيشَةِ فِي بَعْضِ دَوْلِنَا الْعَرَبِيَّةِ أَعْلَى بِكَثِيرٍ مِنْ مُسْتَوَى الْمَعِيشَةِ فِي بَعْضِ دَوْلِ أُرُوبَا الشَّرْقِيَّةِ بِالذَّاتِ؟ أَتَذْكَرُ مِثْلًا أَنَّ سَيِّدَةَ أَعْمَالِ سُوَيْسْرِيَّةِ أَبْلَغَتْني أَنَّ مُتَوَسِّطَ أَجْرِ الْعَامِلِ فِي بُلْغَارِيَا لَا يَتَعَدَّى مِئَتِي قِرْنِكِ سُوَيْسْرِيٍّ شَهْرِيًّا.

عَنَاءُ سُوَيْسْرَا الْفَاحِشُ جَعَلَهَا مَقْصِدًا أَسَاسِيًّا، وَحُلْمًا كَبِيرًا، لِسُكَّانِ دَوْلِ أُرُوبَا الْفَقِيرَةِ. تَمَكَّنَتْ سُوَيْسْرَا خِلَالَ الْعُقُودِ الْمَاضِيَةِ مِنَ الْإِحْتِفَاطِ بِوَضْعِهَا الْخَاصِّ، بَعِيدًا عَنِ الْإِتِّحَادِ الْأُورُوبِيِّ، وَصَارَتْ بِالْفِعْلِ جَنَّةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ عَقُودًا طَوِيلَةً. لَكِنَّ الْإِتِّحَادَ الْأُورُوبِيَّ لَمْ يَسْمَحْ لَهَا بِالْعَيْشِ طَوِيلًا فِي هَذِهِ الرَّفَاهِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ كَجَزِيرَةِ مَغْرُولَةَ عَنِ السُّوقِ الْأُورُوبِيَّةِ، وَأَرْغَمَهَا عَلَى تَوْقِيعِ اتِّفَاقِيَّاتِ تَسْمَحُ لِمَوَاطِنِي الْإِتِّحَادِ الْأُورُوبِيِّ بِالسَّفَرِ إِلَيْهَا، وَالْإِقَامَةِ وَالْعَمَلِ فِيهَا. مُنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ لَمْ تَتَوَقَّفْ هَجْرَةُ الْأُورُوبِيِّينَ إِلَى سُوَيْسْرَا، وَتَفَاقَمَتِ الْأَوْضَاعُ فِي السَّنَوَاتِ الْأَخِيرَةِ، بِسَبَبِ زِيَادَةِ عَدَدِ الْمُهَاجِرِينَ الشَّرْعِيِّينَ، وَعَبْرِ الشَّرْعِيِّينَ، إِلَى سُوَيْسْرَا. وَبَعْدُ.

انْتَهَى الْعَصْرُ الذَّهَبِيُّ الَّذِي عَاشَتْهُ سُوَيْسْرَا مُنْذُ نَحْوِ خَمْسِينَ عَامًا، وَكَادَتْ سُوَيْسْرَا تَغْرُقُ الْيَوْمَ فِي بَحَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَمْوَاجِ اللَّاجِنِينَ!! ارْتَفَعَ عَدَدُ سُكَّانِ سُوَيْسْرَا خِلَالَ السَّنَوَاتِ الْأَخِيرَةِ بِدَرَجَةٍ جُنُونِيَّةٍ، وَتَرَاجَعَ مُسْتَوَى جُودَةِ الْحَيَاةِ، وَازْدَادَ الرِّحَامُ، وَارْتَفَعَتْ مُعْدَلَاتُ الْجَرِيمَةِ، وَتَزَايَدَتِ الضُّغُوطُ عَلَى الْبِنِيَّةِ التَّحْتِيَّةِ، وَانْخَفَضَتِ الْأُجُورُ، وَزَادَتِ الضُّوْضَاءُ، وَأَصْبَحَتِ الْحَيَاةُ فِي الْمُدُنِ السُّوَيْسْرِيَّةِ الْكُبْرَى لَا تَكَادُ تَطَاقُ.

رَكِبْتُ التَّرَامَ فِي زُبُورِخَ بِالْأَمْسِ. سَمِعْتُ الرُّكَّابَ يَتَحَدَّثُونَ عِدَّةَ لُغَاتٍ. هَذَا يَتَحَدَّثُ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ بِلُكْنِيَّةِ رُوسِيَّةِ، وَذَلِكَ يَتَحَدَّثُ الْأَلْبَانِيَّةَ.

هَذِهِ تَتَكَلَّمُ الْأَلْمَانِيَّةُ الْفُصْحَى، وَتِلْكَ تُثَرِّرُ بِالْأَسْبَانِيَّةِ. هُوَ لِأَنَّ بَيْنَنَا قَسْمًا بِاللُّهْجَةِ السُّوَيْسِرِيَّةِ الْأَلْمَانِيَّةِ، وَأَوْلَانِكَ يَتَشَاجِرُونَ بِلُغَةٍ غَيْرِ مَفْهُومَةٍ.

هَذَا يَهْتَفُ أُمُّهُ، وَذَلِكَ يَتَّصِلُ بِوَالِدِهِ. هَذِهِ تَقْرَأُ كِتَابًا، وَهَاتِهِ تَسْمَعُ الْمَوْسِيقَى. هَذَا يَجْلِسُ بِأَدَبٍ، وَذَلِكَ يَتَأَهَّبُ لِلْإِنْقِضَاضِ عَلَى الرُّكَّابِ. هَذِهِ مَشْغُولَةٌ بِنَفْسِهَا، وَهَاتِهِ تُبْحَلِقُ فِي غَيْرِهَا. نَزَلْتُ مِنَ التَّرَامِ. فَشَاهَدْتُ مَا يُشْبِهُ مَعْرَكَةً تَدُورُ رَحَاها فِي وَسْطِ الْمَدِينَةِ. هَذِهِ تَدْفَعُ عَرَبَةَ أَطْفَالٍ، وَهَاتِهِ تَجْرُ حَقِيْبَةَ أَسْفَارٍ. هَذَا يُدَخِّنُ مُسْرِعًا، وَذَلِكَ يَسِيرُ مُتَمَهِّلًا. هَذِهِ تَمْشِي شِبْهَ عَارِيَةٍ، وَهَاتِهِ شِبْهَ مُتَحَشِّمَةٍ. هَذَا يَخْطُو كَالْحِنْدِيِّ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَذَلِكَ لَا تَقْوَى رِجْلَاهُ عَلَى حَمْلِهِ. هَذِهِ رَشِيْقَةٌ جَمِيْلَةٌ، وَهَاتِهِ ثَقِيْلَةٌ قَبِيْحَةٌ.

هَذَا قَوْيُّ الْبُنْيَةِ مَفْتُولُ الْعَضَلَاتِ، وَذَلِكَ مَنُهَوِّكُ الْقُوَى مُتْرَهِّلُ الْأَعْضَاءِ. هَذَا يَهْرُولُ مُسْرِعًا، وَذَلِكَ يُحَدِّقُ مُتَمَهِّلًا. هَذِهِ تُرَاقِبُ بَعْنَايَةَ، وَهَاتِهِ لَا تَعْبَأُ إِلَّا بِمَا أَمَامَهَا. هَذَا يَسِيرُ مُتَبَحِّثًا، وَذَلِكَ يَشْحَتُ مُتَذَلِّلًا.

هَذِهِ تَرْتَدِي يَتَابًا فَاحِرَةً، وَهَاتِهِ مَلَابِسُهَا بِالْيَةِ. هَذِهِ تُظْهِرُ مَفَاتِنَهَا، وَهَاتِهِ تُسْتَرُّ مَسَاوِيَهَا. هَذَا مُثْقَلٌ بِالْأَحْمَالِ، وَذَلِكَ خَفِيفُ الْأَثْقَالِ. هَذَا يَطِيرُ خَفَّةً، وَذَلِكَ لَا يَقْوَى عَلَى الْحَرَكَةِ.

أَسِيرُ خُطُوَاتٍ، فَتَلَا حِنِّي الصُّوْضَاءَ، وَتَغْضِبُنِي الْمَتَّعِصَاتُ!

فِي مَحَطَّةِ الْفِطَارِ الْمَرْكَزِيَّةِ تَتَحَرَّكُ حَفَارَاتُ ضَخْمَةٍ بِأَصْوَاتٍ تُدْمِرُ الْأَذَانَ. عُمَّالُ رَضْفِ الشَّوَارِعِ يَقُودُونَ مَرْكَبَاتٍ ثَقِيْلَةً مُحْمَلَةً بِالْقَبِيرِ لِتَعْبِيدِ الطَّرِيقَاتِ، وَتَخْرِيبِ عَضَلَاتِ الْقَلْبِ بِالصُّوْضَاءِ.

لَا عِبُو كُرَةَ الْقَدَمِ يَقُودُونَ سِيَّارَاتٍ رِيَاضِيَّةً سَرِيْعَةً، لِكَيْهَا دَاتٌ مُحَرَّكَاتٌ مُزَعِجَةٌ، وَحَرَكَاتٌ صَاحِبَةٌ.

لَا يَكَادُ يُوْجَدُ مَبْنَى وَاحِدٌ فِي زِيُورِخَ لَا تَصْدُرُ عَنْهُ صُورَاءٌ صَاحِبَةٌ. هَذَا يَحْفِرُ، وَذَلِكَ يَدُقُّ، هَذَا يَنْشُرُ، وَذَلِكَ يَلْحُمُ، هَذَا يَصِيحُ، وَذَلِكَ يَدْبِدُبُ، تِلْكَ تَبْكِي، وَهَاتِهِ تَتَأَوَّهُ، ذَلِكَ يَسْعَلُ، وَذَلِكَ يَبْصُقُ، هَذِهِ تَقْهَقُهُ، وَهَاتِهِ تُكْرِكُرُ.

تَضَاعَفَتْ أَعْدَادُ الْمُصَابِينِ بِضَعْفِ السَّمْعِ فِي سُوَيْسِرَا حَدِيثًا، وَهُوَ مَا جَعَلَ صِنَاعَةَ السَّمَاعَاتِ تَزْدَهْرُ، وَتِجَارَتَهَا تَرْوُجُ.

الصُّوْضَاءُ، وَالتَّلَوُّثُ، وَالاِحْتِيَاسُ الْحَرَارِيُّ، تُسَهِّمُ جَمِيعًا فِي إِضْعَافِ مَنَاعَةِ الْجِسْمِ. السَّرَطَانُ يَحْتَاجُ فِي الْمُتَوَسِّطِ إِلَى نَحْوِ خَمْسَةِ عَشْرَ عَامًا لِتَيْكُونَ وَبِصِيرٍ مُتَوَحِّشًا قَاتِلًا. مُعَدَّلَاتُ الْإِصَابَةِ بِالسَّرَطَانِ عَلَى مُسْتَوَى الْعَالَمِ فِي تَزَايِيدٍ مُسْتَمِرٍّ. الْإِنْفِجَارُ السُّكَّانِيُّ عَالَمِيًّا سَيَزِيدُ مِنْ تَفْشِي هَذِهِ الْأَمْرَاضِ الْقَاتِلَةِ بَيْنَ الْبَشَرِ.

وَصَلْتُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَتَجَرِّ كَبِيرٍ لِلْمَوَادِّ الْغِذَائِيَّةِ، وَالشُّكُولَاتِ السُّوَيْسِرِيَّةِ. مَا كِدْتُ أَدْخُلُ الْمَحَلَّ الَّذِي يَبْدَأُ بِقِسْمِ الْخُضَارِ

وَالْفَاكِهَةِ، حَتَّى شَعَرْتُ بِمَنْ يَلَا حِنِّي مِنْ حَلْفِي، وَبِرِيدِ أَنْ يُكَلِّبَنِي مِنْ عُنُقِي! هَذِهِ تَتَعَقَّبُنِي، وَتِلْكَ تَدْفَعُنِي، وَهَاتِهِ تُبْحَلِقُ فِي

وَجْهِي! قَرَّرْتُ أَنْ أَتْرِكَ لَهْنَ الْمَكَانَ. وَالْوَدَّ بِالْفَرَارِ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ. صَعِدْتُ إِلَى الدَّوْرِ الْأَوَّلِ بِالسَّلَامِ الْكَهْرُبَائِيَّةِ، بَحْثًا عَنِ الْإِسْتِرَاحَةِ

مِنَ الْكَائِنَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ. فَلَمْ أَكَدْ أَضْعُ قَدَمِي فِي هَذَا الطَّابِقِ، وَأَحْمَدُ الْبَارِي الْخَالِقِ، حَتَّى جَاءَتْ فَتَاةٌ مِنَ الْخَلْفِ تُرِيدُ إِزَاحَتِي

مِنَ الصُّوفِ، وَتَصْفِيَّتِي مِنَ الْوُجُودِ. فَافْسَحْتُ لَهَا الطَّرِيقَ مُسْتَعْرِبًا، وَاسْتَنْكَفْتُ سُلُوكَهَا مُتَعَجِّبًا. تَوَجَّهْتُ إِلَى قِسْمِ الْأَسْمَاكِ

وَاللُّحُومِ، أَمَّا فِي الْأَمَانِ وَالسُّكُونِ. فَلَمَحْتُ تِلْكَ الْفَتَاةَ وَقَدْ سَبَقْتَنِي إِلَى الْأَمَامِ، وَوَقَفْتُ تَتَحَدَّثُ مَعَ الْعِزَّارِ وَبَائِعِ لُحُومِ الطَّيْرِ

وَالْحَيَوَانَ. فَالْقَيْتُ نَظْرَةً عَلَى السَّمَكِ الْمُعْبَأِ فِي التَّلَاجَاتِ الْمُغْلَقَةِ، وَنَظَرْتُ إِلَى الْعُبُوتِ الْمُغْلَقَةِ. لَمَحْتُ عُبُوءَةً مِنْ سَمَكِ السَّالْمُونِ

أَقَلَّ مِنْ نِصْفِ كِيلُوجَرَامِ، فَأَخَذْتُهَا مُسْرِعًا، وَعَدْتُ إِلَى الْعِزَّارِ مُهْرُولًا. طَلَبْتُ مِنْهُ ثَلَاثَ مِئَةِ جَرَامٍ مِنْ كَبِدَةِ الْعُجْلِ، مِنْهَا تَسُوقِي فِي

ذَلِكَ الدَّوْرِ. ثُمَّ عُدْتُ إِلَى قِسْمِ الْخُضَارِ وَالْفَاكِهَةِ فِي الدَّوْرِ الْأَرْضِيِّ مُسْرِعًا. لَمَحْتُ نَوْعًا جَدِيدًا مِنَ الْمَانِجَةِ النَّاضِرَةِ، أَخَذْتُ مِنْهَا

حَبَّتَيْنِ، وَأَضْفْتُ لَهُمَا ثَمْرَةً مِنَ الْأَنَانِاسِ. ثُمَّ هَرَوْتُ إِلَى مَاكِئَةِ الدَّفْعِ الدَّائِيَّةِ، فَمَرَّرْتُ كُلَّ سِلْعَةٍ عَلَى جِهَازِ الْمَسْحِ، الْإِسْكَانَرِ، وَسَدَدْتُ الْفَاتُورَةَ بِبِطَاقَةِ الْإِنْتِمَانِ، وَبِالْوَصْلِ الصَّغِيرِ فَتَحْتُ بَابَ الْخُرُوجِ، عَائِدًا إِلَى الْبَيْتِ بِسَلَامٍ!

الْإِحْتِنَاقُ يَكَادُ يَقْتُلُ مَدِينَةَ زِيُورِخَ. الْمَهَاجِرُونَ الْعُدُدُ يُثْقَلُونَ عَلَى شَوَارِعِهَا، وَاللَّاجِئُونَ الْغُرَبَاءُ يَتَزَاحَمُونَ عَلَى أَرْضِيَّتِهَا. أَعْدَادُ

الأجانب بالنسبة للسكان الأصليين في سويسرا تعدّ الأعلى أوروبياً. قبل نحو عقدين كان عدد سكان مدينة زيورخ نحو 350 ألف نسمة، ثلثهم من الأجانب. اليوم تضاعف هذا العدد، وزادت نسبة الأجانب. ليس هناك إحصائيات دقيقة لسكان زيورخ، خاصة أن هناك عدداً كبيراً من اللاجئين المقيمين بدون تصريحات إقامة.

مع زيادة عدد سكان زيورخ، تفتت في الناس خلق التوحش. شاعت اللامبالاة، والأنايئة، والوقاحة، والعدوانية. وتلاشت الأخلاق، وتراجع الأدب، وتدرت الرحمة، وغاب التضامن والتسامح. العنف أيضاً في تزايد مستمر، ومعدلات الجريمة تتصاعد يومياً. الإعتداء على الشرطة أصبح شيئاً عادياً في زيورخ.

شوارع مدينة زيورخ تحولت إلى ما يشبه ساحة معارك ساخنة تدور بين قادة السيارات المختلفة، فضلاً عن راكبي الدراجات الهوائية، وأصحاب الدراجات النارية، والتقليعة الأحدث المسماة إسكوتر *scooter* -

كل شخص يقود سيارة أو دراجة نارية أو هوائية أو إسكوتر في شوارع زيورخ، لا هم له إلا أن يسبق الآخرين. أصحاب الدراجات الهوائية سارعوا إلى تركيب محرك كهربائي في دراجاتهم ليتمكنوا من مسابقة السيارات والدراجات النارية.

الإعجاب بالذات أصبح سيد الموقف. العطرسة، والغرور، والانتفاخ، واللامبالاة، والعدوانية، تبرز بجلاء في شوارع زيورخ. التدخل المستمر لحكومة مدينة زيورخ، يفرض سرعة 30 كم في الأماكن السكنية بالذات، أسهم لا محالة في تقليل الزحام وحفض معدلات الضوضاء.

لكن لا علاج للزيادة الجنونية في عدد سكان زيورخ. فحركة المرور تكاد لا تتوقف في شوارع زيورخ على مدار الساعة. هي تهدأ قليلاً بعد منتصف الليل، لكنها تعود بقوة وعنف بعد الرابعة فجراً.

هذا العدد الهائل من المركبات التي لا تكاد تتوقف عن الحركة في شوارع مدينة زيورخ، وسويسرا عموماً، يُنتج كميات ضخمة من عوادم السيارات، ومن الضوضاء. التكدس، والتلوث، والضوضاء، كلها جميعاً سُموم قاتلة تهدد حياة البشر في مدينة زيورخ. وهنا يحدث نوع من الموت البطيء للناس بإضعاف جهاز مناعة الجسم، تهيئاً للوقوع فريسة لأمراض قاتلة.

ولم يعد هناك إلا الأحزاب اليمينية التي تدق ناقوس الخطر، وتطالب بميزانية أكبر للشرطة، وبوقف تسونامي الهجرة. لكن اليسار يتصرف بلامبالاة، بل ويدعم مزيداً من الهجرة. والنتيجة مأساوية فعلاً.

ما انفكت سويسرا تجذب إليها شتى الجنسيات من جميع أنحاء العالم. قرأت حديثاً أن مدينة زيورخ جنست عدداً من المقيمين فيها من أكثر من مئة دولة مختلفة!

لكن اللاتفة هو كثرة المهاجرين من ألمانيا الشرقية سابقاً، أو ما يسمونه الولايات الألمانية الجديدة التي كانت تكون في الماضي «جمهورية ألمانيا الديمقراطية» التي لم تكن جمهورية، ولا ديمقراطية، بل ديكتاتورية شيوعية قمعية!

حكّت لي جرسونة من شرقي ألمانيا أن الأجور في مدينتها الأصلية تبدأ بثمانية مئة يورو شهرياً، وعندما تنتقل إلى سويسرا تحصل على نحو ثلاثة آلاف فرنك شهرياً! والفرنك السويسري قد صار أخيراً أقوى من اليورو!

وقال لي صديق ألماني إن نسبة الأجور في معظم المهن بين ألمانيا وسويسرا هي واحد إلى ثلاثة، بمعنى أن عامل البناء الذي يحصل في ألمانيا على ألف يورو شهرياً، يكسب في سويسرا ثلاثة آلاف يورو شهرياً!

كل هذا دفع أعداداً بل جيوشاً من الألمان إلى الهجرة إلى سويسرا، لتحسين مستواهم المعيشي.

وفي دراسات منشورة تأتي سويسرا وأمريكا في صدارة الدول التي يحلم الألمان بالعيش فيها.

الهجرة الداخلية في أوروبا لا تتوقف. سكان الدول الفقيرة يحلمون بالهجرة للدول الغنية.

في ألمانيا نجد أعداداً غفيرة من العمال البولنديين الذين يحصلون في ألمانيا على ضعف ما يحصلون عليه من أجر في بلادهم.

وَقَبْلَ خُرُوجِ إِنْجِلْتِرَا مِنَ الْإِتِّحَادِ الْأُورُوبِيِّ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَسْبَانِ يَحْلُمُونَ بِالْعَمَلِ فِيهَا، لِأَنَّ الْأُجُورَ فِي إِنْجِلْتِرَا كَانَتْ أَعْلَى مِنْ نَظِيرَتِهَا فِي أُسْبَانِيَا. لَكِنَّ جَوْدَةَ الْحَيَاةِ فِي أُسْبَانِيَا أَعْلَى بِكَثِيرٍ مِنْ نَظِيرَتِهَا فِي بَرِيطَانِيَا بِرَمْتِهَا. وَهُوَ مَا يَجْعَلُ مُعْظَمَ الْأَسْبَانِ يَتَمَسَّكُونَ بِالْعَيْشِ فِي بِلَادِهِمْ، وَيَرْفُضُونَ الْهَجْرَةَ. بِرَغْمِ انْخِفَاضِ مُسْتَوَاتِ الْأُجُورِ هُنَاكَ. عِنْدِي أَصْدِقَاءُ أُسْبَانِ كَثِيرُونَ فِي مَارِيَا يَقُولُونَ إِنَّهُمْ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ لِلرَّحِيلِ مِنْ أُسْبَانِيَا، مَهْمَا كَانَتْ الْإِعْرَاءَاتُ، لِعَشْفِهِمُ الْحَيَاةَ فِي مَارِيَا، وَحُبِّهِمُ الْبَحْرَ، وَاسْتِمْتَاعِهِمْ بِالطَّقْسِ الْمُعْتَدِلِ طَوَالَ الْعَامِ. فِي مُقَابِلِ ذَلِكَ أَعْرِفُ كَثِيرًا مِنَ الْبَرِيطَانِيِّينَ الَّذِينَ يَفْرُونَ قَرًّا مِنْ طَقْسِ بَرِيطَانِيَا السَّيِّئِ، وَيَعُدُّونَ أُسْبَانِيَا جَنَّةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ. وَقَدْ وَصَلَ مُتَوَسِّطُ عَدَدِ السِّيَاحِ الْبَرِيطَانِيِّينَ فِي أُسْبَانِيَا خِلَالَ السَّنَوَاتِ الْأَخِيرَةِ نَحْوَ 17 مِلْيُونَ سَائِحٍ سَنَوِيًّا. وَبَعْدُ. نَسْتَطِيعُ مَلَاخَظَةَ هِجْرَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْبَلَدِ الْوَاحِدِ وَالْيَهُ. فَدَوْلَةٌ مِثْلُ أُسْبَانِيَا، لِمَنْ لَا يَعْرِفُهَا، هِيَ جَنَّةٌ مِنْ جَنَاتِ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ. بَيِّنُ أَنَّ الْأَسْبَانِ شَعْبٌ فَقِيرٌ بِصِفَةِ عَامَّةٍ، مُقَارَنَةً بِشُعُوبِ وَسَطِ أُرُوبَّا وَشَمَالِهَا. وَهَذَا بِدَوْرِهِ جَعَلَ مُعْظَمَ خَيْرَاتِ أُسْبَانِيَا تَذْهَبُ لِلْأَجَانِبِ مِنَ أَعْنِيَاءِ أُرُوبَّا بِالذَّاتِ.

وَتَتَّحَ عَنْ هَذَا أَنَّ الْهَجْرَةَ إِنْ حَدَثَتْ مِنْ جَانِبِ الْأَسْبَانِ، فَغَالِبًا مَا تَكُونُ بِدَافِعِ افْتِصَادِيٍّ. وَفِي مُقَابِلِ هَذَا يَهَاجِرُ أَعْنِيَاءُ أُرُوبَّا إِلَى أُسْبَانِيَا لِلِاسْتِمْتَاعِ بِخَيْرَاتِهَا وَطَقْسِهَا الْجَمِيلِ، وَشَوَاطِئِهَا الْخَلَابَةِ. أَيَّ أَنَّ الْأَسْبَانِ يَهَاجِرُونَ بَحْتًا عَنِ الْمَالِ، وَأَعْنِيَاءُ أُرُوبَّا يَهَاجِرُونَ بَحْتًا عَنِ الطَّقْسِ الْمُعْتَدِلِ وَجَوْدَةِ الْحَيَاةِ.



فَائِتْ عَيْدِ وَأُولَرِيخِ مَوْلَرِ عَمْدَةُ مَارِيَا الشَّرْفِي

هَذِهِ الْحَالَةُ نَلَاخِظُهَا أَيْضًا فِي مِصْرَ، حَيْثُ يَهْجُرُهَا الْآنَ مُعْظَمُ الْمِصْرِيِّينَ قَرَارًا مِنْ جَحِيمِ حُكْمِ الْعَسْكَرِ، فِي حِينِ أَنَّ بَعْضَ أَعْنِيَاءِ أُرُوبَّا لَا يَتَرَدَّدُونَ فِي شِرَاءِ مَنَزِلٍ عَلَى الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ فِي مِصْرَ، لِلِاسْتِمْتَاعِ بِجَمَالِ الطَّبِيعَةِ هُنَاكَ، وَالْفَرَارِ مِنَ الْبَرْدِ الْقَارِسِ فِي أُرُوبَّا. وَبَعْدُ.

أَزْدِيَادُ الْكثَافَةِ السُّكَّانِيَّةِ غَالِبًا مَا يُشِيرُ إِلَى وُجُودِ تَرْوَةٍ، أَوْ فَرَصِ عَمَلٍ، أَوْ نَشَاطِ افْتِصَادِيٍّ مَحْمُومٍ، أَوْ تَقَدُّمِ عِلْمِيٍّ ظَاهِرٍ، أَوْ أَزْدِهَارِ تِجَارِيٍّ رَائِحٍ.

أَتَذَكَّرُ مَثَلًا أَنَّ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ فِي عَصْرِهَا الذَّهَبِيِّ كَانَتْ يَعْشُرُ فِيهَا نَحْوُ مِلْيُونِ يَهُودِيٍّ، فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ الْمِيلَادِيٍّ، بِحَسَبِ مَا أوردَهُ الْعِمْلَاقُ السُّوَيْسَرِيُّ هَانَسُ كِينَجَ فِي كِتَابِهِ «الدِّيَانَةُ الْيَهُودِيَّةُ».

وَالْقَاهِرَةُ مَا انْفَكَّتْ تَجْدُبُ إِلَيْهَا سُكَّانَ سَائِرِ الْمُحَافَظَاتِ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِينَ يَعُدُّونَهَا أَعْنَى مِنْ أَقَالِيهِمْ وَأَكْثَرَ تَقَدُّمًا، وَهُوَ مَا أَدَّى إِلَى أَزْدِحَامِهَا الشَّدِيدِ.

وَكَانَ عِنْدِي صَدِيقٌ مِنْ كَانْتُونِ سَانْتِ جَالَانَ فِي سُوَيْسِرَا، الَّذِي يَبْعُدُ بِنَحْوِ سَاعَةٍ عَنْ كَانْتُونِ زُيُورِخَ، ظَلَّ يَحْلُمُ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً بِالْعَيْشِ وَالْعَمَلِ فِي مَدِينَةِ زُيُورِخَ، فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْ تَحْقِيقِ حُلْمِهِ، وَالِانْتِقَالَ إِلَى أَعْنَى مَدِينَةِ سُوَيْسِرِيَّةِ، أَقَامَ حَفْلَةً صَاحِبَةً تَخْلِيدًا لِهَذَا الْحَدَثِ التَّارِيخِيِّ! وَبَعْدُ.

فَلَعَلَّ أَهْمَ مَا يُفْلِقُنِي هُوَ مُسْتَقْبَلُ الْحَيَاةِ عَلَى كَوْكَبِ الْأَرْضِ فِي ظِلِّ هَذَا الْإِنْفِجَارِ الْجُنُونِيِّ الْمُخِيفِ لِعَدَدِ سُكَّانِ الْعَالَمِ مِنْ نَاحِيَّةِ، وَإِسْكَالِيَّةِ الْخَلَلِ الْكَبِيرِ فِي الْكثَافَةِ السُّكَّانِيَّةِ بَيْنَ دَوْلِ الْعَالَمِ، وَفِي أَحْبَابِنِ كَثِيرَةٍ فِي دَاخِلِ الْبَلَدِ الْوَاحِدِ، مِنْ نَاحِيَّةِ أُخْرَى.

وَصُولُ عَدَدِ سُكَّانِ الْعَالَمِ إِلَى ثَمَانِيَةِ مِليَارَاتٍ نَسْمَةَ يَجِبُ أَنْ يَدْفَعَنَا جَمِيعًا إِلَى دَقِّ نَاقُوسِ الْخَطَرِ، وَطَرَحِ أَسْئَلَةٍ مَنطِقِيَّةٍ مَشْرُوعَةٍ. أَقْلَيْسَ هَذَا الْعَدَدُ الضَّخْمُ يَفُوقُ طَاقَةَ كَوْكَبِنَا؟ وَإِذَا كَانَتِ الْكُرَّةُ الْأَرْضِيَّةُ مَا زَالَتْ تَحْتَمِلُ صَابِرَةً، صَامِتَةً، صَامِدَةً، مَا يَرْتَكِبُهُ الْبَشَرُ مِنْ جَرَائِمٍ فِي حَقِّ الطَّبِيعَةِ مِنْ تَلْوِيثٍ لِلْأَرْضِ، وَتَكْدِيرٍ لِلْمِيَاهِ، وَتَسْمِيمٍ لِلجَوِّ، فَإِلَى مَتَى يَا تَرَى تَسْتَطِيعُ الْكُرَّةُ الْأَرْضِيَّةُ تَحْمِلَ هَذِهِ الْأَعْيَاءَ وَالْأَثْقَالَ؟

وَإِذَا كَانَ عَدَدُ سُكَّانِ الْعَالَمِ قَدْ تَضَاعَفَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ خِلَالَ الْقَرْنِ الْأَخِيرِ، فَكَمْ مَرَّةً يُمَكِّنُ أَنْ يَتَضَاعَفَ خِلَالَ قَرْنِنَا هَذَا؟ عَوَادِمُ السِّيَّارَاتِ أَشْبَعَتِ الْأَجْوَاءَ تَسْمِيمًا. الضُّوضَاءُ أَهْلَكَتِ صِحَّةَ الْبَشَرِ وَالْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ جَمِيعًا. الْكِيمَاوِيَّاتُ لَوَّتَتِ الْبِحَارَ وَالْأَنْهَارَ وَالْمُحِيطَاتِ وَقَتَلَتْ نَحْوَ 780% مِنَ الثَّرْوَةِ السَّمَكِيَّةِ عَلَى مُسْتَوَى الْعَالَمِ.

إِبَادَةُ الْعَابَاتِ الْإِسْتَوَائِيَّةِ لَمْ تَتَوَقَّفْ. الطَّائِرَاتُ مَا انْفَكَّتْ تُسَمِّمُ الْجَوَّ بِعَوَادِمِهَا، وَتُزَعِّجُ الْبَشَرَ بِضُوضَائِهَا، وَتَخْنُقُ النَّبَاتَ بِكَبِيرُوسِيْنِهَا. النَّبَاتَاتُ تَشْكُو بِلا جَدْوَى مِنْ تَسْمِيمِ الْهَوَاءِ، وَالتُّرْبَةِ، وَالْمَاءِ، وَمِنْ صَعْبِ الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ. الْقِطْطُ يَأْسَتْ مِنَ الشَّكْوَى مِنَ الضُّوضَاءِ. كُلُّ هَذَا لَا يُبَشِّرُ بِالْخَيْرِ، وَيُنذِرُ بِعَوَاقِبٍ وَخِيمَةٍ. فَعَدَدُ سُكَّانِ الْمُدُنِ الَّذِينَ يَمُوتُونَ سَنَوِيًّا بِسَبَبِ تَسْمِيمِ الْهَوَاءِ فِي تَضَاعُدٍ. وَضُوضَاءِ الْمُدُنِ الْكَبِيرَةِ ضَاعَفَتْ مِنْ مَرَضَى الْقَلْبِ وَضَعْفِ السَّمْعِ فَضْلًا عَنْ مَشَاكِلِ النَّوْمِ.

لَكِنَّ السِّيَّارَاتِ وَالْأَكْثَرُ رُغْبًا هُوَ أَنْ نَصِلَ إِلَى لَحْظَةٍ تَقُولُ فِيهَا الْأَرْضُ، بِإِذْنِ رَبِّهَا، هَذَا يَكْفِي، لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَحَمَّلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ!! مَاذَا نَحْنُ فَاعِلُونَ إِذَا بَلَغَ عَدَدُ سُكَّانِ الْأَرْضِ عِشْرِينَ مِليَارَ نَسْمَةٍ؟ مَاذَا نَحْنُ فَاعِلُونَ إِذَا بَدَأَ النَّاسُ يَخْتَفِقُونَ مِنَ الرَّحَامِ، وَيَمُوتُونَ مِنَ الْأَهْوِيَّةِ السَّامَةِ، وَيَنْهَارُونَ مِنَ الضُّوضَاءِ الَّتِي لَا تُحْتَمَلُ؟

كُلُّ هَذِهِ أَسْئَلَةٌ مَشْرُوعَةٌ يَجِبُ أَنْ يُفَكَّرَ فِيهَا كِبَارُ السَّاسَةِ وَرِجَالُ الْأَعْمَالِ، وَالْبَاحِثُونَ وَالْعُلَمَاءُ، وَالْمُفَكِّرُونَ وَالْكَتَّابُ. لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَتَجَاهَلَ هَذِهِ التَّطَوُّرَاتِ الْمَاسَاوِيَّةَ. وَبَعْدُ.

فَتَعُدُّ إِشْكَالِيَّةَ التَّفَاوُتِ الْكَبِيرِ فِي الْكثَافَةِ السُّكَّانِيَّةِ بَيْنَ دَوْلِ الْعَالَمِ مِنَ التَّحَدِّيَاتِ الْكُبْرَى الَّتِي تَوَاجَهُ مُسْتَقْبَلُ الْبَشَرِيَّةِ عَلَى كَوْكَبِ الْأَرْضِ.

غَالِبًا مَا تَرْتَبِطُ الْكثَافَةُ السُّكَّانِيَّةُ الْعَالِيَةُ بِالثَّرَاءِ وَالنَّشَاطِ الْاِقْتِصَادِيَّ الْقَوِيَّ. لَكِنَّ الْكثَافَةَ السُّكَّانِيَّةَ الْعَالِيَةَ تَعْنِي فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ تَرَاجُعًا فِي جُودَةِ الْحَيَاةِ. فَجُودَةُ الْحَيَاةِ تَعْنِي، ضَمْنًا مَا تَعْنِي، وَجُودَ مَسَاحَاتٍ شَاسِعَةٍ لِلنَّاسِ تَوْفُرُ لَهُمُ الْهَوَاءُ الطَّلَقُ، وَالْحَرَكَةُ بِدُونِ اِزْدِحَامٍ، وَالِاسْتِحْصَامِ بِدُونِ اِزْعَاجٍ.

وَأَنْخِفَاضُ الْكثَافَةِ السُّكَّانِيَّةِ قَدْ يَعْنِي مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى كَسَادًا، وَتَرَاجُعًا فِي النَّشَاطِ الْاِقْتِصَادِيَّ، وَفُتُورًا، وَعَزُوفًا عَنِ الْعَمَلِ وَالِاجْتِهَادِ. الْاَلْفَتِ أَوْرُوبِيًّا مَثَلًا الْاِرْتِفَاعُ الشَّدِيدُ لِلْكثَافَةِ السُّكَّانِيَّةِ فِي سُوَيْسْرَا وَأَلْمَانِيَا وَهُولَنْدَا، وَهِيَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ مِنْ أَكْثَرِ دَوْلِ الْعَالَمِ تَقَدَّمَ وَدَخَلَ لِلْفَرْدِ. وَتُمَثِّلُ الْبَابَانَ النَّظِيرَ الْاَسِيَوِيَّ لِسُوَيْسْرَا وَأَلْمَانِيَا وَهُولَنْدَا مِنْ حَيْثُ اِرْتِفَاعُ الْكثَافَةِ السُّكَّانِيَّةِ وَالتَّقَدُّمُ التَّكْنُولُوجِيَّ وَارْتِفَاعُ مُسْتَوَى الْمَعِيشَةِ.

مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى نَلَاظُ اِلنْخِفَاضَ الْاَلْفَتِ لِلْكثَافَةِ السُّكَّانِيَّةِ فِي رُوسِيَا، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ يَعْذُ رَفَاهِيَّةً مِنْ مَنظُورِ جُودَةِ الْحَيَاةِ، إِلَّا أَنَّهُ يُوْجِي بِحَالِهِ مِنَ الرُّكُودِ الْاِقْتِصَادِيَّ، وَالْفُتُورِ وَالْكَسَادِ، قَدْ يَكُونُ بُوْتِينَ هُوَ الْمَسْؤُولُ الْاَوَّلَ عَنْهَا.

قَوْفَقًا لِلْكَاتِبِ الْاَمْرِيكِيِّ كِرَايْجِ اُونَجَرِ، فِي كِتَابِهِ : *House of Trump. House of Putin* فَإِنَّ بُوْتِينَ الَّذِي تَوَلَّى الْحُكْمَ فِي رُوسِيَا سَنَةَ 2000م لَمْ يُوَسَّسْ دَوْلَةً دِيمُقْرَاطِيَّةً حَدِيثَةً، بَلْ اَقَامَ دَوْلَةً مَافِيَا دِيكْتَاوْرِيَّةً رَجْعِيَّةً، فَسَلَّتْ فِي اسْتِغْلَالِ الثَّرَوَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي رُوسِيَا لِتَحْقِيقِ التَّنْمِيَةِ الْمُنْشُودَةِ. وَبَعْدُ.

فَلَعَلَّ مِنَ الْمُفِيدِ أَنْ نَسْتَعْرِضَ هُنَا نَمَازِجَ تَوْضِحَ لَنَا الْفُرُوقَ الْهَائِلَةَ فِي نَسْبَةِ الْكثَافَةِ السُّكَّانِيَّةِ بَيْنَ دَوْلِ الْعَالَمِ. فَبِحَسَبِ الْمَرْجِعِ الْاَلْمَانِيِّ الشَّهِيرِ : *Der neue Fischer Weltalmanach 2012* :

1- تُعَدُّ رُوسِيَا أَكْبَرَ دَوْلِ الْعَالَمِ مِسَاحَةً بِأَكْثَرِ مِنْ 17 مِليُونِ كَمِ مَرَبَعٍ، وَيَسْكُنُهَا نَحْوُ 142 مِليُونِ نَسَمَةٍ فَقَطْ لَيْسَ غَيْرُ، بِكثَافَةِ سَكَّانِيَّةٍ مُنْخَفِضَةٍ جِدًّا تَبْلُغُ 8,3 أَشْخَاصٍ فِي كُلِّ كَمِ مَرَبَعٍ.

2- كَنَدَا هِيَ ثَانِي أَكْبَرَ دَوْلَةٍ فِي الْعَالَمِ مِنْ حَيْثُ الْمِسَاحَةُ بِمَا يَقْرُبُ مِنْ عَشْرَةِ مَلَائِينَ كَمِ مَرَبَعٍ، وَلَا يَتَعَدَّى عَدَدُ سَكَّانِهَا 34 مِليُونِ نَسَمَةٍ، بِكثَافَةِ سَكَّانِيَّةٍ أَقَلِّ مِنْ رُوسِيَا تَبْلُغُ 3,4 أَشْخَاصٍ فِي كُلِّ كِيلُومِترٍ مَرَبَعٍ.

3- ثَالِثَ أَكْبَرَ دَوْلَةٍ فِي الْعَالَمِ مِنْ حَيْثُ الْمِسَاحَةُ هِيَ الْوَلَايَاتُ الْمُتَّحِدَةُ الْأَمْرِيكِيَّةُ بِأَقَلِّ مِنْ عَشْرَةِ مَلَائِينَ كِيلُومِترٍ مَرَبَعٍ، وَيَسْكُنُهَا نَحْوُ 308 مَلَائِينَ نَسَمَةٍ، بِكثَافَةِ سَكَّانِيَّةٍ أَكْبَرَ مِنْ كَنَدَا وَرُوسِيَا تَبْلُغُ 31 فَرْدًا لِكُلِّ كِيلُومِترٍ مَرَبَعٍ.

4- فِي مُقَابِلِ هَذِهِ الرَّفَاهِيَّةِ الْمُتَمَثِّلَةِ فِي الكَثَافَةِ السُّكَّانِيَّةِ الْمُنْخَفِضَةِ جِدًّا فِي رُوسِيَا وَكَنَدَا وَالْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ، تَرْتَفِعُ الكَثَافَةُ السُّكَّانِيَّةُ بِشِدَّةٍ فِي دَوْلَةٍ صَغِيرَةٍ مِثْلِ سُويسِرَا الَّتِي تَحْتُلُّ الْمَرْكَزَ 132 عَالَمِيًّا مِنْ حَيْثُ الْمِسَاحَةُ بِنَحْوِ 42 أَلْفِ كِيلُومِترٍ مَرَبَعٍ فَقَطْ لَيْسَ غَيْرُ. وَقَدْ ارْتَفَعَ عَدَدُ سُكَّانِ سُويسِرَا سَنَةَ 2023م إِلَى عَشْرَةِ مَلَائِينَ نَسَمَةٍ. وَبَلَّغَتِ الكَثَافَةُ السُّكَّانِيَّةُ فِيهَا سَنَةَ 2012م نَحْوَ 190 شَخْصًا فِي كُلِّ كِيلُومِترٍ مَرَبَعٍ. الْفَارِقُ شَاسِعٌ جِدًّا بَيْنَ كَنَدَا الَّتِي يَسْتَمْتِعُ فِيهَا كُلُّ أَرْبَعَةِ أَشْخَاصٍ تَقْرِيبًا بِكِيلُومِترٍ مَرَبَعٍ، وَبَيْنَ سُويسِرَا الَّتِي يَتَكَدَّسُ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ 190 شَخْصًا فِي كُلِّ كِيلُومِترٍ مَرَبَعٍ. هَذَا فَارِقٌ كَبِيرٌ جِدًّا تَكُونُ لَهُ آثَارٌ وَاضِحَةٌ عَلَى صِحَّةِ الْإِنْسَانِ، لِأَنَّ الْإِزْدِحَامَ وَالتَّكَدُّسَ لَهُمَا عَوَاقِبٌ وَخِيمَةٌ عَلَى صِحَّةِ الْإِنْسَانِ.

5- أَمَّا السُّعُودِيَّةُ، فَوْقًا لِلْمَرْجِعِ الْمَذْكُورِ هُنَا فَتَحْتُلُّ الْمَرْكَزَ الثَّانِي عَشَرَ عَالَمِيًّا مِنْ حَيْثُ الْمِسَاحَةُ، بِمِسَاحَةِ قَدْرِهَا 2,240,000 كِيلُومِترٍ مَرَبَعٍ، وَيَعِيشُ فِيهَا وَفَقًا لِإِحْصَائِيَّاتِ سَنَةِ 2012م نَحْوُ 26 مِليُونِ نَسَمَةٍ، بِكثَافَةِ سَكَّانِيَّةٍ مُنْخَفِضَةٍ تَبْلُغُ 11، 3 شَخْصًا فِي كُلِّ كِيلُومِترٍ مَرَبَعٍ. وَبَعْدًا

فَهَذِهِ دَعْوَةٌ صَادِقَةٌ إِلَى كُلِّ مَنْ يَهْمُهُ مُسْتَقْبَلُ كُوْكَبِنَا هَذَا أَنْ يَتَأَمَّلَ فِي هَذِهِ التَّطَوُّرَاتِ الْمُزْعِجَةِ، وَيَفَكِّرَ فِيمَا نَسْتَطِيعُ فِعْلَهُ وَتَقْدِيمَهُ لِتَحَاشِيِ حُدُوثِ كَوَارِثٍ مُحْتَمَلَةٍ، وَتَجَنُّبِ وَقُوعِ مَصَائِبٍ مُقْتَرِيَةٍ. عَلَيْنَا أَنْ نُؤَاوِزَ بَيْنَ الْإِسْتِعْدَادِ لِلْآخِرَةِ، وَالتَّخْطِيطِ لِلْحِفَاطِظِ عَلَى كُوْكَبِ الْأَرْضِ: «اعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا، وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا». وَبَعْدًا.

مِنْ وَاجِبِنَا أَيْضًا، نَحْنُ الْعَرَبُ، أَنْ نَجْتَهِدَ لِتَعْمِيرِ بِلَادِنَا، وَتَنْمِيَّتِهَا، وَتَطْوِيرِهَا، وَرَفْعِ مُسْتَوِيَّاتِ مَعِيشَةِ شُعُوبِنَا، وَتَحْوِيلِ عَالَمِنَا الْعَرَبِيِّ إِلَى مَنطِقَةٍ لِيَجْذِبَ الْعُقُولَ، وَلَيْسَ لِيَطْرُدَ الشَّبَابَ وَأَصْحَابِ الْمَوَاهِبِ.

تَبْلُغُ مِسَاحَةُ عَالَمِنَا الْعَرَبِيِّ نَحْوَ 13 مِليُونِ كِيلُومِترٍ مَرَبَعٍ، أَي أَكْبَرَ مِنْ مِسَاحَةِ أُوْرُوبَا (نَحْوَ عَشْرَةِ مَلَائِينَ كِيلُومِترٍ مَرَبَعٍ)، يَعِيشُ فِيهِ نَحْوُ 400 مِليُونِ نَسَمَةٍ، فِي مُقَابِلِ أَكْثَرِ مِنْ 751 مِليُونِ نَسَمَةٍ يَعِيشُونَ فِي أُوْرُوبَا.

قَالَ مُسْتَقْبَلُ لِلْعَرَبِ، لَوْ اُمْتَدَّتِ الْحَيَاةُ عَلَى الْأَرْضِ عُقُودًا قَلِيلَةً. يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ الْعَرَبِيُّ اسْتِيعَابَ نَحْوِ 400 مِليُونِ شَخْصٍ جَدِيدٍ. لَا يَنْقُصُ الْعَرَبُ، إِلَّا الْإِسْتِفْرَارُ، وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةُ، وَالتَّنْمِيَّةُ، وَالْأَمْنُ، وَالْأَمَانُ.

أُوْرُوبَانَا الْعَرَبِيَّةُ بِحَاجَةٍ إِلَى حُكُومَاتٍ وَاعِيَةٍ، شَرِيفَةٍ، مُخْلِصَةٍ، مُجْتَهِدَةٍ، مُؤْمِنَةٍ، طَمُوحَةٍ، تَعْمَلُ مِنْ أَجْلِ تَنْمِيَّةِ بِلَادِنَا، وَرَفْعِ مُسْتَوِيَّاتِ مَعِيشَةِ شُعُوبِنَا، وَتَوْفِيرِ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ لِلنَّاسِ، وَاحْتِرَامِ حُقُوقِ الرَّعِيَّةِ!

وَالْعَبْقَرِيَّةُ هُنَا هِيَ أَنْ نَبْدَأَ دَائِمًا مِنْ حَيْثُ انْتَهَى الْآخَرُونَ! لَا يَجُوزُ أَنْ نَبْدَأَ كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الصُّفْرِ، مِنْ آدَمَ وَحَوَا! لَا يَجُوزُ أَنْ نَتَّجَاهَلَ تَجَارِبَ الْآخَرِينَ! وَاجِبُنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ مِنَ الْآخَرِينَ، وَنَسْتَبِيَهُمْ.

قَابِتُ عِيدِ